رؤى

# مسرح المضطهدين ... بين الفن والتعليم

دينا أبو دية

"الدنيا مسرح كبير، وكل الرجال والنساء ما هم إلا ممثلون على هذا المسرح".
(وليم شكسبير)

لم يكن لديَّ، في حقيقة الأمر، أدنى قدْرٍ من المعرفة عن مسرح المضطهدين قبل انخراطي في التدريب الذي يتم في مركز القطان للبحث والتطوير بغزة، وعندما بدأنا في التدريب شدَّني كثيراً اختلافُ هذا النوع من الفن المسرحي عن باقي أنواع الفنون، لأنه يُعنى بشكل مخصوص ومُركَّز بتحقيق ما يجب أن يحدث في الواقع بصورة فنية، ففي مسرح المنتدى يجرب المشارك مختلفَ الحلول الممكنة لمشكلاته الحياتية، ويُسهم في تغيير قناعات المُشاهد بصورة خفيَّة لا يدركها إلا بالتفكير للحظات مع نفسه، ووضع ذاته مكان الشخصية، سواءً أكان مُضْطَهَداً أو مُضْطَهِداً، أو قد يكون حليفاً لأحدهما، أو حتى له دورٌ حيادي لا يُرْجى منه تغيير الواقع ورفع الظلم.

لقد تأثرنا بمسرح المنتدى، كمتدربين، بشكلٍ كبير، ليس فقط في صقل القدرات الفنية وتطوير الكتابات المسرحية والتأملية، وإنما أيضاً في التفكير بمواقفَ سابقة تعرَّضْنا من خلالها للاضطهاد، أو واجهنا حالاتٍ مع أشخاص آخرين كمضطهَدين لم نستطع رفع الظلم عنهم ولو بكلمة.

إن التعاملَ مع المسرح بوصفه لغةً حية، وتفعيل الجسد كأداة للتعبير من خلال الإيماءات والحركات ذات الهدف، وكذلك النقاشات والتفاعلات بين أفراد مجموعتنا، كان له عظيمُ الأثر كأداة تعليمية تحريضية، وتدريب على التفكير الخلاق، ومعالجة الصراعات بطرق إيجابية يمكن الاستفادةُ منها في الواقع، فمسرح المنتدى يُعتبر بمثابة منصة لتحفيز التفكير وخلق حلول للمشكلات التي تواجهنا في حياتنا اليومية، وكثيراً كان يتردد في رأسي تساؤلٌ عن الهدف من دمجنا كمعلمين في هذا النوع من الفن والتدريب عليه، وهل له علاقةٌ مباشرة مع عملنا في المدارس؟ لكن مع مرور الوقت بدأتُ بالربط بين المواقف التي نمثلها أو نرتجلها على خشبة المسرح والتي لا تأتي من فراغ وإنما هي مختَزنةٌ في العقل الباطن، وهي حصيلةٌ لتجاربَ حقيقية مررنا بها في مدارسنا مع زملاء العمل أو طلبتنا أو حتى أولياء أمورهم، وكيفية تعاملنا مع تلك المواقف، وهو ما نسميه في لغة الدراما أو المسرح (النموذج) الذي تعلمنا منه هذا الفعل، فقد كنا عند الارتجال نستخدم عباراتٍ وطُرقَ تعبيرٍ مستنبطةً من الواقع الذي مررنا به.

وأصبحتُ أُدرك بعد ذلك أنه ليس هناك شرٌّ مطلق، وأن كل إنسان لو حكمنا عليه أنه مُضْطَهِد في نظرنا، فإن لديه دوافعَ ومبررات لأفعاله، ولديه أيضاً نموذجٌ تعلَّم منه السلوكَ واقتدى به، وفي هذا المقام استحضرتُ مشاهدَ حدثت معي خلال سنوات حياتي العملية في المدارس لم أكن لأذكرها إلا بعد اندماجي في مسرح المنتدى وقراءاتي عنه، سأسردها هنا على هيئة محاور متعددة.

## أولاً. تأملات في قصص الطلبة (تجارب واقعية):

**1. المحوسبون:**

قبل عشرِ سنوات وفي بداية استلام مهام عملي كمعلمة مساندة، وكنتُ حينها مرافقةً لمعلمة أساسية، وفي ذلك الوقت تم استحداثُ برنامج حاسوبي تفاعلي لتعليم الطلبة ذوي التحصيل المتدني، فكان الأمرُ بالنسبة للمعلمة مربيةِ الصف مهمةً شاقةً بل مُهينة، على حد تعبيرها، لأنها لا تريد التعاملَ مع هذه الفئة الضعيفة، فكانت تؤدي عملَها وهي غير راضية، ما قد يدفعها أحياناً للتعامل بقسوة معهم، وتُفرغ غضبها عليهم. كنتُ حينها حديثةَ العهد بالتعليم، ولكن كنت أراها وهي تسلك هذا السلوك مع الأطفال الذين لم يتجاوزوا السبع سنوات، وقلبي يعتصر ألماً دون أن أقدر على فعل شيء. لقد كان موقفي في ذلك المشهد محايداً، لأنني أريد أن أحافظ على لقمة عيشي ولا أتدخل فيما لا يعنيني، فكنت أكتفي بالطبطبة عليهم دون أن تراني، أو أخرج خارج الصف لأكفكف دموعي وبداخلي ثورةٌ كبيرة، ولم يكن الأمرُ يتوقف عند هذا الحد فحسب، وإنما كان جميع مَن في المدرسة يسخرون منهم وينعتونهم بصفة الإعاقة، ويطلقون عليهم لقب (المحوسبين)، فالظلمُ واقعٌ عليهم، إذاً، من جميع الاتجاهات.

كنت قد تناسيتُ الكثيرَ من المواقف في ذلك الوقت البعيد، حتى وصلتُ إلى مسرح المنتدى لأستعيدَ تلك الذكريات الصعبة على نفسي، والتي تجعلني دائمةَ اللوم لذاتي على سكوتي، وأسأل نفسي: ألم أكن حينها أمتلكُ لساناً يمكنني من الذود عنهم؟ أكان خوفي على لقمة العيش، آنذاك، أكبرَ في نفسي من مُعايَشتي لآلامهم؟ لقد مثَّل لي هذا التساؤلُ صراعاً بين قيمةٍ ومصلحةٍ خاصة، لم أكن لأجزمَ وقتها أيهما تَرْجحُ كفَّتُه؟

وكنت كلما تذكرت تلك الأيام، تتكشف لديَّ تساؤلاتٌ أكثر عمقاً، هل أصبح الطالب الضعيف أكاديمياً، محاطاً بالكثير من الأشواك التي تحاصره ولا تسمح له بالتقدم، فقط لأننا حكمنا عليه بالضعف من خلال بضعة أرقام لا معنى لها؟ هل الطالب الضعيف، وفق حكم البعض، أصبح «زبوناً» غير مرغوب فيه لدى الكثير من المعلمين بل وأحياناً لدى الإدارات المدرسية؟ ألم نسأل أنفسنا لماذا نحن -كمعلمين- هنا؟ وماذا تعني المدرسةُ بالنسبة إلينا؟

وأغمضتُ، حينها، عينيَّ لأشاهد في خيالي هذا الطفلَ المنبوذ بسبب حكمنا عليه يلبس ثوب القاضي، والمعلم الذي أهانه يوماً وحقَّر من شأنه وأقصاه في المقعد الأخير يقبعُ في قفص الاتهام ... كيف كان ليدافعَ عن نفسه أمام هذا القاضي ... نعم إنه مسرح المنتدى الذي سيحوِّل هذا الضعيفَ إلى قاضٍ قادر على إصدار الحكم، ومحاسبة من تسبب يوماً بأذيَّته مهما كان نوعها.

**2. العين الحمرا:**

في العام التالي، تم تعييني بشكل رسمي كمعلمة للصف الأول، وكنتُ قد عاهدتُ نفسي، حينها، أن أكون حليفةً للأطفال المهمَّشين والمضطَهدين، وأن أقف في صفهم مهما كانت الضغوط، وأن أحميهم، بما أوتيتُ من قوة، مما قد يتعرضون له من إساءة. وقد كانت، وأعتقد مازالت، هناك فكرةٌ سائدة لدى معلمي الصف الأول تحديداً، أن المعلم يفرض سطوته من خلال القوة والقسوة على طلابه، خاصةً من أول لقاء، وكان يقدم لي النصحَ كمعلمة جديدة بأن لا أبتسمَ في وجوههم، وأن أضع عواطفي تجاههم جانباً قبل دخول الصف، وكانت تتردد عباراتٌ متوارثة لديهم مثل (فرجيهم العين الحمرا) و(اضرُب المربوط بيخاف السايب)، فالتسلط بالنسبة إليهم مفتاحٌ للسيطرة على هذه الكائنات، وأقصرُ طريق لضبط الصف وتحقيق السمعة.

كنتُ أصُمُّ أذنيَّ عن هذه العبارات، وأبدأ كل عام مع أطفالي بدايةً محببة إليهم، بدايةً تربطهم بالمدرسة والصف، وكنت أسعى دوماً إلى كسب ثقتهم ومحبتهم من خلال تعرُّفي إليهم وإلى محيطهم الاجتماعي، وابتكار طرائقَ غير نمطية في ذلك الوقت، ما خلق نوعاً من التناغم بيني وبينهم، وساهم في انقيادهم، لي ليس من خلال السطوة والقسوة، وإنما من خلال القيادة بالحب والمشاركة.

وكنتُ كلما حاورَني الشيطانُ أن أجرَّبَ طريقة (العين الحمرا) في ضبط الصف والسيطرة على الأطفال، نظرتُ إلى أيديهم الصغيرة، ونظرتُ إلى رسوماتهم التي تحكي قصصاً وحكايا عن خباياهم وعن مخاوفهم، وعن علاقاتهم الاجتماعية مع ذويهم، والتي قد تكون أوهنَ من بيت العنكبوت، واستعذتُ باللّه من شيطاني، ثم عدتُ إلى رُشدي وجدَّدتُ عهدي مع أطفالي.

لقد عمل مسرحُ المنتدى على تغيير النمطية في التفكير والتبعية والابتعاد عن فكرة (وأنا مالي؟!) إلى الانطلاق نحو إبراز الصراع إلى السطح، وخلق فُرص لحلِّه والتدخل الإيجابي، فكثيراً ما نمرُّ بجوار الأشياء ولا نراها، ليس لأننا لا نبصرُ، وإنما لأننا لا نستبصر، ولأننا نشأنا على إخفاء العيوب والرضا بالواقع مهما كان ظالماً.

**3. راما وأخواتها:**

إنها راما، تلك الطفلةُ السمراء ذات العيون العسلية الغائرة المرتجفة عند اقتراب أي شخص منها، لقد لاحظتُ منذ اليوم الأول لها في الصف الأول، أنها تُبدي شعورَ الخوف إذا اقتربتُ منها، وتضع يدها على رأسها اتقاءً لضربة متوقَّعة، فأجلسُ بجوارها لأهدئَها وأُشعرَها بالأمان.

كان يبدو على راما قلةُ الاهتمام، فشعرُها كان غير ممشط جيداً، وكان زِيُّ المدرسة غيرَ مرتب، وكانت منطويةً قليلةَ الكلام، بدأتُ بدراسة حالتها والبحث في محيطها الأُسري، فعرفتُ أن أُمها مطلقة ولا تسأل عنها، وأن أباها في السجن بسبب إحدى القضايا، وأنها تعيش مع جدتها وجدها، وعرفتُ أنها تتعرض للعنف ولا تعيش حياةً آمنة كباقي الأطفال.

بدأتُ أتقربُ منها كثيراً، وأحضرتُ لها مشطاً وبعضَ دبابيس الشعر، وكنت أطلب منها أن تذهب لتغسلَ وجهها، وأقوم بترتيبها حتى لا تشعر بالنقص وبالاختلاف عن زملائها في الصف.

لقد أدركتُ بطبيعتي كأُم، وبحكم خبرتي في تعليم الأطفال، أن هذه الطفلة ينقصها الكثير الكثير، وأنها تتعرض إلى سوء المعاملة والإهمال والعنف الأسري الذي سيحولها، حتماً، إلى كيانٍ منتَهَك الكرامة والإنسانية ومسلوب الطفولة، بل ومجردٍ من كل شيء جميل. راما ليست حالةً واحدة، إنما يوجد العشراتُ من (الرامات) في صفوفنا على مدار الأعوام الدراسية، فهل كان لنا دورٌ كمعلمين في إنقاذهم، أو، كأضعف الإيمان، تعويضهم ولو بالقليل

أطفال يشاركون في فعالية "الكون في قشرة جوز" التي نظمها استوديو العلوم، برنامج البحث والتطوير التربوي، 2018. التربوي، 2018.

الذي هو في نظرهم كثير، فكاتبةُ هذا المقال كانت إحدى هؤلاء العشرات، وكانت تسعدها ابتسامةٌ من القلب أو حتى مسحةٌ على الرأس الصغير.

لقد كانت راما وأخواتُها ضحيةَ الأهل والمجتمع، وينتظرها مستقبلٌ مجهول، ويُمارَس ضدها العنفُ والحرمان، فهل يكون مسرحُ المنتدى، يا تُرى، منبراً لإيجاد حل لمثل هذه القضايا التي تواجهنا كلَّ عام تقريباً؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، فلماذا لا نبدأ ليرى جمهورُ المسرح موقعه في حياة راما؟

## ثانياً. مسرح منتدى طفولي:

طلابُنا صغارٌ في أحجامهم كبارٌ في عقولهم وقدرتهم على التفكير والإبداع وإيجاد حلول ليس لها حدود، فبعد إحدى حلقات التدريب عدتُ إلى المدرسة وفي ذهني تساؤلٌ عن مدى صلاحية تطبيق مسرح المنتدى مع الأطفال، فأجبتُ نفسي، باختصار، بأنني لا أدري هل يصلحُ أم لا.. لكن ما المانع من التجربة، عندها جمعتُ بعضَ تلاميذي وفتحنا حلقةً من الدردشة الطفولية حول الأشياء التي تُزعجهم في المدرسة، وبصراحة لم أكن قد خططتُ لهذا اللقاء، لكن أعتقد أنه أحياناً قد لا نحتاج إلى التخطيط، وإنما قد يكون الارتجال سيدَ الموقف.

وعندما سألتُهم: هل تحبون المدرسة؟ رفع الجميعُ أيديهم مؤيدين، باستثناء طالبين، ولاحظتُ في عيون باقي زملائهم الدهشةَ والاستنكار لمخالفتهم الجماعة.. نعم، فقد فُطرنا على هزِّ الرأس والسير وراءَ القطيع. كانت هذه فرصتي، أو بتعبير درامي (الهدية) التي اعتبرتُها مفتاحاً للغوص في أعماقهم. شجعتهم على الحديث عن سبب عدم حبهم للمدرسة.. أجابت الطالبة الأولى: أنا أكره المدرسة لأننا نكلَّفُ بالكثير من الواجبات المرهِقة، وأعاقَبُ حين إهمالي لها، وأجاب آخر: لأن المدرسة تخلو من الألعاب التي كنا نستمتع بها في الروضة، ثم بدأ باقي الأطفال بالحديث عما يزعجهم، وعن مواقفَ شعروا فيها بظلم ولم يستطيعوا الدفاعَ عن أنفسهم، وكان ذلك نوعاً من الفضفضة الطفولية، وكنت حينها أتأمل وجوههم المُسْتَفَزَّة وكم كان بودِّهم تغييرُ الواقع، ورفعُ بعض الظلم حينها، لكن لا حولَ لهم ولا قوة.

طلبتُ منهم ارتجال أحد المواقف التي تضمنَت ظلماً ظاهراً وقع على إحدى الطالبات، حيث اتهمتها معلمتُها أمامَ زملائها بسرقة غرض من أغراض المعلمة، بل وتم تفتيش حقيبتها عنوةً، وقد ظهر في المشهد المرتجَل ردُّ فعل الطالبة السلبي على الموقف لخوفها من المعلمة، وعندما طلبتُ من باقي الأطفال التدخلَ والوقوفَ مكان الطالبة المضطهَدة، شاهدتُ الكثير من ردود الأفعال التي لم أكن أتوقعها منهم.

وكنت قد سجلت فيديو للحوار الذي دار بين الطلبة في المشهد، ليس فقط من أجل سماعهم، وإنما حتى ألاحظ تعبيرات وجوههم جميعاً، والتي قد تفوتني أثناء أدائهم للمشهد وتركيزي مع شخص بعينه، وكان نص الحوار كالتالي:

نور (بدور المعلمة) بعصبية وإصبعُ السبابة موجهٌ لمِيار المتهمة: مَن الذي سرق السلسال عن طاولتي؟
حسن (أحد زملاء لين): ميار أخذته، أنا شُفْتها.
لين بتظلُّم (وقد كانت بالفعل هي المتهمة في الموقف الحقيقي): والله مش أنا اللي أخَذْتُه، والله والله.
المعلمة: والله غير أفتشك تفتيش.
لين مرة أخرى: والله مش أنا اللي أخَذْتُه، صدقيني.
حسن يهمّ بضرب لين: إنتِ اللي أخذتيه، إنتِ.
ثم طلبتُ من الأطفال إعادةَ المشهد بعد نقاش حول ما حصل وما كان يجب أن يحصل، وعن مدى حق الخصوصية، وكنتُ قد غيرتُ الأدوار لأشاهدَ ردودَ أفعالٍ جديدة.
حلا (بدور المعلمة): يلّا بسرعة، طَلّعي السلسال اللي أخذتيه.
جنى في دور المُضْطَهَدة (تتحدث بثقة): مستحيل آخذ شيء ليس لي ولا من حقي.!
المعلمة: هاتي شنطتك أفتشها ... وتسحب الحقيبة بقوة.
يتدخل طالب بتلقائية ويسحب الحقيبة ويعيدها لصاحبتها!

لقد كان لهذا الموقف وقعٌ كبيرٌ في نفسي، لما تضمَّنه من استضعاف الغير، بل وانتهاك لخصوصيته، حيثُ كانت الحقيبة تحمل رمزيةً واضحةً، فهل يحقُّ لنا، مهما بلغت درجةُ سطوتنا، أن نعبث بأغراض الغير وننتهك خصوصيتهم؟ كم من الحقائب تحتوي على أسرار وحكايا وأغراض لا ينبغي إلا لصاحبها الاطلاعُ عليها؟ هل يحق لنا الحكمُ على الآخر بأنه سارقٌ والتشهيرُ به أمام الآخرين؟

لقد احتوى هذا الموقف الكثيرَ من الانتهاكات التي تستدعي تدخلات تحفز المُضْطَهَد على الدفاع عن نفسه وعن حقوقه كإنسان.

كذلك فإن ردَّ فعل الطالب الأخير يدل على عدم رضاه عما يحدث، لكن في الواقع بعيداً عن مسرح المنتدى، لا يجرؤ على إعادة الحقيبة، بل يسلم بهذا الواقع ويترك غصته في صدره.

كانت تلك تجربةً على الهامش، لكنني قررتُ في نفسي أن أكررها وأن أستفيد من وجهات نظر الأطفال في مواجهة المشكلات، وكذلك تنميةَ قدرتهم في الحوار الهادف، والتوحد بروح الفريق الواحد والاستقلال الفكري والبعد عن الذاتية.

إن اعتماد مسرح المنتدى على مبدأ الارتجال هدفه الوصول إلى جذب الجمهور نحو الشخصية الممثلة، بهدف توريطه ودفعه للمشاركة، لأنه يؤمن بأن الممثل والمشاهد هما محورُ التمسرح، ولا يمكنُ تصورُ أيِّ عملٍ مسرحي دونهما، فباعتقادي أن الطفل أكثرُ قدرةً على إبراز مشاعره في المسرح دون تزييف. بعد هذه التجربة، ولو أنها كانت بسيطة، اكتشفتُ أن مسرح المنتدى صالحٌ لكل الأعمار، لأن الاضطهاد لا يفرّق بين كبير وصغير، لهذا يجب علينا، كمعلمين، إتاحةُ الفرص للطلبة للتعبير عن آرائهم بحرية، وعدمُ إلزامهم بفكر معيَّن أو تقييدُهم، فتفكيرهم مازال غضّاً نظيفاً لم يتلوث بالتبعية والسير وراء القطيع.

في نهاية هذا المقال الذي كان نتاجَ تأمُّلات في التجربة، واستذكار ما تم تناسيه من عالَم المضطَهدين، أقترحُ عقدَ وُرشٍ تطويرية متخصصة بالتدريب على تقنيات مسرح المنتدى للمعلمين، لأن العملية التعليمية عمليةٌ تفاعلية، ويمكن الإفادةُ من المسرح في عملية إصلاح التعليم، وإدخالُه ضمن مناهج الدراسة، لأنه يمثل فضاء للحرية، ويطلق العنان لقدرات الأطفال، ويصقلُ قدرتهم على التحاور والتعبير والطلاقة، والإتيان بأفكار إبداعية وأصيلة.

**معلمة في مدرسة أسماء الابتدائية المشتركة «ج» – غزة**

فنانون وأهالٍ يشاركون في إعادة إحياء البلدة القديمة في قطنة من خلال التطريز، ضمن مشروع الثقافة والفنون والمشاركة المجتمعية، برنامج البحث والتطوير التربوي، 2018.